مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(١ تيموثاوس ٤: ٩-١٥)

يا إخوةُ صادقةٌ هي الكلمةُ وجديرةٌ بكلِّ قَبولٍ* فإنَّنا لهذا نتعَبُ ونُعيَّرُ لأنَّا أَلقَينا رجاءَنا على اللهِ الحيِّ الذي هو مخلِّصُ الناسِ أجمعين ولا سِيَّما المؤمنين* فوصِّ بهذا وعلِّمْ به* لا يستَهِنْ أحدٌ بفتوَّتِكَ بل كُنْ مثالاً للمؤمنينَ في الكلامِ والتصرُّفِ والمحبَّةِ والإيمانِ والعفاف* واظِبْ على القراءةِ إلى حينِ قدومي وعلى الوعظِ والتعليم* ولا تُهمِلِ الموهِبَةَ التي فيك التي أُوتيتها بنبوَّةٍ بوضعِ أيدي الكهنةِ* تأمَّلْ في ذلك وكُنْ عليه عاكِفاً ليكونَ تقدُّمُكَ ظاهراً في كلِّ شيءٍ.

حول الرسالة

في رسالته الأولى إلى تيموثاوس، يدعو بولس الرسول تلميذه تيموثاوس إلى المواظبة على القراءة. قد تكون هذه الوصية مفيدة جداً لِمَن يقرأ هذه الكلمات اليوم، لأننا لا نقرأ الكتاب المقدس كقصة حدثت في الماضي، بل ككلمات حيّة تحاكي حاضرَنا وترشد مستقبلنا. المؤمن يعتبر أن بولس الرسول يكلّمه من خلال تيموثاوس، فالمواظبة على القراءة مفيدة للجميع خصوصاً إذا أحسنّا اختيار ماذا نقرأ وكيف نقرأ.

بولس الرسول يدعو تيموثاوس إلى قراءة الكتب المقدسة التي كانت موجودة في ذلك الوقت، أي كتب العهد القديم. هذه كان بولس يعرفها جيداً لكنها لم ترشده إلى خلاصه إلا حين لمس الربُّ قلبَهُ. اليومَ كثيرون يؤمنون بالرب يسوع ولكن قلةً تعرف الكتب المقدسة أو تجد فرحها فيها. هؤلاء يؤمنون بالرب يسوع ويكونون غالباً من أصحاب النيّات الحسنة، ولكن لا يبذلون الجهد الكافي ليتبحّروا في الإيمان عبر دراسة الكتب. إن المحبة الفعلية تُظهَّر عبر الجهد المبذول للبحث عن المحبوب والبقاء بقربه والتعمّق في معرفته. لذلك مَن يخلق أعذاراً لعدم قراءة الكتب المقدسة خصوصاً الإنجيل عليه أن يسأل نفسَه عن مدى صدق محبَّته لله.

ماذا نقرأ؟ لكي تكون قراءتُنا مثمرة روحياً، ينصح الآباءُ المبتدئين بقراءة العهد الجديد جيداً قبل الشروع بقراءة العهد القديم، إلى جانب قراءة الكتب الروحية الأخرى من سير قدّيسين وكتب تعليمية وعقائدية، لكن يبقى الكتاب المقدس هو الأساس. يقول بولس الرسول في وصفه لسلاح الله الكامل الذي يلبسه الإنسان ليثبت ضد مكايد إبليس: «حاذينَ أرجُلَكم باستعدادِ إنجيلِ السلام» (أف ٦: ١٥). في الحروب القديمة، كانت أهمية الأحذية العسكرية تُوازي أهمية السلاح، لأنّ فيالق المقاتلين تفوز بفضل التقدّم السريع كما بفضل القتال. وقد كانت هذه الأحذية قوية، تسمح بتهوئة الرجلَين، ومُدعَّمة بمسامير حديدية صُمِّمت خصّيصاً لتحمل الأوزان،

العدد ٢٠١٤/٤

الأحد ٢٦ كانون الثاني

تذكار أبينا البار كسينوفون

ورفقته

اللحن السادس

إنجيل السَحَر التاسع

الإنجيل

(لوقا ١٩: ١–١٠)

في ذلك الزمان فيما يسوعُ مجتازٌ في أريحا إذا برجُلٍ اسمُهُ زكَّا كان رئيساً على العشَّارين وكان غنيًّا* وكان يلتمِسُ أن يرى يسوعَ مَن هو فلم يكن يستطيعُ من الجمع لأنَّهُ كان قصيرَ القامة* فتقدَّمَ مسرِعاً وصعِدَ إلى جمَّيزةٍ ليَنظُرَهُ لأنَّه كان مُزمِعاً أن يجتازَ بها* فلمَّا انتهى يسوعُ إلى الموضع رفع طَرْفَهُ فرآهُ فقال له يا زكَّا أسرِعِ انزِلْ فاليومَ ينبغي لي أن أمكُثَ في بيتك* فأسرعَ ونزَلَ وقبِلهُ فرِحاً* فلمَّا رأى الجميعُ ذلك تذمَّروا قائلين إنَّه دخل ليحُلَّ عند رجلٍ خاطئ* فوقف زكَّا وقال ليسوعَ هاءنذا يا ربُّ أُعطي المساكينَ نِصْفَ أموالي. وإن كنتُ قد غبَنْتُ أحداً في شيءٍ أرُدُّ أربعةَ أضعافٍ* فقال لهُ يسوعُ اليومَ قد حصلَ الخلاصُ لهذا البيتِ لأنَّه هو أيضاً ابنُ إبرهيم* لأنَّ ابنَ البشرِ إنَّما أتى ليَطلُبَ ويُخلِّصَ ما قد هلك.

وهي تتحمّل مشقّة أميال من التقدّم. أثناء الحرب، ينام جنود الصفوف الأمامية وهم ينتعلون أحذيتهم. فإذا دعت الحاجة، يكونون جاهزين للوقوف على أرجلهم والإنطلاق مباشرة إلى العمل. والجنديّ الذي لا ينتعل حذاءه سيخسر وقتاً ثميناً في البحث عنه، ثمّ إنّه وهو في عجلة من أمره لانتعاله، قد لا يربط سير حذائه كما يجب. وقد يكلّفه ذلك حياته، وحياة الآخرين أيضاً.

في الحرب التي نخوضها نحن ضد الشيطان، علينا حماية أرواحنا. ولكي نتمكّن من القيام بذلك، علينا أن ننتعل حذاءنا في كلّ الأوقات: أن نحذوَ أرجلنا بإنجيل السلام، وهو، ببساطة التعبير، كلمة الله. أن نكون على استعداد لنعيشها وننقلها إلى الآخرين، لتقطع مسافات طويلة وتصل إلى أقاصي الأرض. علينا أن نعرف كلمة الله، علينا أن نقرأها، وأن نتأمّل في معانيها، وأن ندرسها، وأن نفهمها، وأخيراً أن نبشّر بها. كلّ ذلك يتطلّب وقتاً والسرعة هنا لا تُجدي نَفعاً. وكحال سائر الأحذية، يحتاج حذاء إنجيل السلام أولاً إلى تليين، وهذا ما لا يمكن أن يتمّ إلاّ بعد انتعاله لفترة وجيزة حتى يغدو مُريحاً. ليس في الأمر حكمةٌ أن ينطلق المرء في مسيرة طويلة وهو ينتعل حذاءً جديداً يلبسه للمرة الأولى. هكذا شيئاً فشيئاً، عبر القراءة اليومية المتأنية للكتاب المقدس، نتآلف معه ونستطيع أن ننقله للآخرين مُعاشاً في حياتنا.

القديس أنطونيوس الكبير وصلته رسالة ذات يوم من الإمبراطور قسطنطين، ففرح تلاميذه جدًّا، ولكن القديس ترك الرسالة جانباً، فتعجب تلاميذه وتحمسوا لقراءة الرسالة. فقال لهم: «لماذا تفرحون يا أولادي هكذا لرسالة وصلتنا من إنسان؟ هوذا الله قد أرسل لنا رسائل كثيرة في الإنجيل المقدس، ونحن لا نقابلها بمثل هذا الفرح والحماس!» ثم بعد ذلك قرأ خطاب الإمبراطور وأرسل إليه يباركه. عندما نقرأ هذه الحادثة المعبّرة التي استغلّها القديس أنطونيوس للإشارة إلى درجة وعي الإنسان الدائم لأهمية كلام الله، ألا نسأل أنفسنا هل نحن نبحث عن رسائل الله لنا كلَّ يوم في كتابه المقدس؟

في العهد القديم، أوصى الربّ يشوع بن نون خليفة موسى، قائلاً: «لا يبرَحْ سِفرُ هذه الشريعةِ من فمِكَ، بل تلهَجُ فيه نهاراً وليلاً لكي تتحفَّظ للعملِ حسبَ كلِّ ما هو مكتوبٌ فيه، لأنَّك حينئذٍ تُصلِحُ طريقَك، وحينئذٍ تُفلح» (يش ١: ٨). تصوروا قائداً مشغولاً جداً كيشوع، عليه كل مسؤوليات الحكم الضخمة، ومع ذلك يقول له الرب: «لا يبرح سِفر هذه الشريعة من فمك». ليس هذا الكلام موجهاً إلى يشوع وحده، بل إلى كل واحدٍ وواحدٍ منا. لذلك يقول المزمور الأول عن الرجل البار: «في ناموسِ الربِّ مسرَّته وفي ناموسِهِ يلهَجُ نهاراً وليلاً» (مز ١: ٢).

عندما نتأمّل جيداً في كلام الكتب المقدسة نجد الآية الواحدة، وكأنها بحر واسع لا حدود له، كما قال داود النبي: «لكلِّ كمالٍ رأيتُ حدًّا، أمَّا وصيَّتُك فواسعةٌ جدًّا» (مز ١١٩: ٩٦). أي إن كل كمال له حدود، أما وصية الله فلا حدود لعمقها. فكما أن الله غير محدود،

تأمل

«لا يستهن أحدٌ بفتوَّتك بل كُنْ مثالاً للمؤمنين في الكلام والتصرّف والمحبة والإيمان والعفاف. واظب على القراءة وعلى الوعظ والتعليم».

على الأهل تربية أولادهم بشكل صحيح، إلى نموّ الجسد والروح المتوازن. عليهم تعليمهم التقوى والفضيلة، وإن لم يفعلوا هذا يجب ألا يُدعوا أهلاً.

كما تحضرون طبيباً عندما يمرض ولدكم جسدياً، إفعلوا هكذا أيضاً عندما يعاني نفسياً. النفس تكون مريضة عندما تخطئ وعندما تزني وعندما تسرق وعندما تفعل كلّ ما يرفضه الله.

لكنّ الجهل أيضاً وعدم التعليم هو مرض النفس الكبير، لأنه بسببه تحدث متاعب كثيرة. إذاً، يجب أن نعلّم أولادنا لأنهم هكذا سيستطيعون أن يعرفوا الله أفضل. من دون تعليم سيكونون كالحيوانات التي لا عقل لها. الإنسان العاقل يجب أن يكون حكيماً أيضاً كما خلقه الله منذ البداية. من دون الحكمة الإنسان حجر كريم ثمين مدفون في الطين، هو قارب من دون دفة ومن دون طاقم يسير في عرض بحر الحياة من كذلك عمق كلماته غير محدود، مهما تأملتها، تجد أن التأملات تفتح أمامك آفاقاً لا تُحَد، هي جديدة باستمرار، جديدة على ذهنك وعلى فهمك، لهذا قال النبي: «ما أحلى قولَك لحنكي، أحلى من العسل لفمي» (مز ١١٩: ١٠٣).

ختاماً لا يكفي أن يطالع المؤمن كلمات الكتاب المقدس من دون أن يكون لديه نيّةٌ واستعدادٌ للعمل بها. يقرأ المهتمُّون بالرياضاتِ مجلاّتِ الرياضة والجرائد، وهم جالسون. ربَّما يكونون بدينين ولكنهم يُعجبون بالرياضيين، ولا تتصبَّبْ منهم نقطةُ عرقٍ واحدة، كما أنّهم لا يخسرون شيئاً من وزنهم. يقرأون ويقرأون عن الأحداثِ الرياضيَّة، ثمَّ يستلقونَ ولا ينتفعون، فهم يكتفونَ فقط بلذّةِ القراءة. هذا يحصل أيضاً مع بعض الذين يقرأون الكتب الروحية، إذ يعتبرون أنهم يستفيدون روحياً لمجرد التمتّع بالقراءة. بينما الإفادة الفعلية تكون عندما نفهم ماذا نقرأ، عندما ننتقدُ أنفسنا ونضبطها بتطبيق ما تعلمناه، فبقدر ما نتعلّم تزداد مسؤوليتنا في عيش ما تعلمناه.

التواضع عند القديس أفرام

عاش القديس أفرام (نعيّد له في ٢٨ كانون الثاني) في القرن الرابع الميلادي في مدينة الرها شمال شرق سوريا والمعروفة في أيامنا هذه بأورفا. من هنا تأتي تسميته بأفرام السوري كما يحلو للعرب مناداته، وهو معروف أكثر بأفرام السرياني نسبةً إلى اللّغة التي كانت مستخدمة في تلك البلاد. إشتهر هذا القديس بغزارة كتاباته وعظاته التي يشرح فيها الكتاب المقدس ويعلّم أصول الحياة الروحيّة. من بين هذه الكتابات مئويّة تتحدّث عن التواضع وهي موضوعنا اليوم.

أدبيًّا اشتهر أسلوب الكتابة المئويّة في الماضي. يقسم الكاتب موضوعه إلى مئة باب أو مقطع. في مئويّته هذه، في الميمران الخامس والسادس، يشرح القديس أفرام كيفيّة إقتناء الإنسان للتواضع. التواضع بحسب هذا القديس هو أحد أهمّ الفضائل التي يمكن أن يكتسبها الإنسان. في حديثه عن التواضع يقول إنّ بدء الثمرة هو الزهرة، وبدء التواضع هو الطاعة في الرب. إن أطاع الإنسان الرب فسيثمر تواضعاً كما تتحوّل الزهرة إلى ثمرة. أمّا عكس ذلك فهو استعلاء الذهن أو التشبّث بالرأي، وهو نتيجةٌ لانقياد الإنسان لرأيه الشخصي ناسياً أو متناسياً الله ونِعَمَه.

طاعة الله وتالياً التواضع يثمران خالقَين تقوى عند الإنسان. يحذّر القديس في هذا المجال من السقوط في التجربة. على الإنسان أن ينتبه من أن يلقي الشيطان في ذهنه، تحت ستار الورع، فكراً غريباً يؤدّي إلى المجد الباطل والكبرياء فيزلّ المرء على مثال الفرّيسي في مَثَل الفريسي والعشّار. كما يحذّر من التراخي بحجّة التقوى موضحاً أنّ التراخي يعطّل التقوى ويجلب التعيير لصاحبه.

إقتناء التواضع يفرض على الإنسان مواجهة الإعتداد بالنفس. هذه المواجهة تبدأ من نكران الذات والنظر إلى النجاحات التي يحقّقها المؤمن من منظار روحي. حينئذٍ لا

دون قيادة، إلى المجهول. لذلك قال أحد الحكماء: «الأميّ ينظر لكنه لا يرى». يبدو له أنه يرى لكنه أعمى لأنه ليست لديه معرفة وقبل كل شيء معرفة حقائق الإيمان وعقائده: ما هي النفس، الله المثلّث الأقانيم والقيامة والمعمودية والملائكة والقداس الإلهي والكهنوت إلخ.

يقول النبي داود: «امتلكوا العلم لئلا يغضب الرب» (مز ٢: ١٢). أعطوا أولادكم تعليماً مسيحياً، هذا هو واجبكم، فإن لم تبالوا تأثمون حتى ولو كانت لديكم فضائل أخرى. علّموهم أسرار الكنيسة، والبرّ، والعفة، وشجاعة النفس، ساعدوهم على معرفة أنفسهم، لأنها تقودهم إلى معرفة الله أيضاً. إن لم يعرفوا الله، هل ستُفيدهم كلّ الأشياء الأخرى؟ ألم تسمعوا الرب الذي يقول في الإنجيل المقدس إنه لو ربح الإنسان العالم بأسره وخسر نفسه فإنه لا ينتفع شيئاً؟

إذاً، هذّبوا أولادكم روحياً وحافظوا على أنفسكم أيضاً، وهكذا ستخلُصون وتدخلون ملكوت السموات بنعمة مسيحنا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

يردّ الإنسان النجاح إلى ذاته بل يصرخ مع الرسول: «لا أنا بل نعمة الله التي معي» (كو ١٥: ١٠). هذا المؤمن يكون قد فوّض أمره لله متسلّحاً بالصبر والطاعة كسلاحٍ روحيّ في هذه المواجهة.

ينصح القديس أفرام المؤمن بالهذيذ بالشوق إلى الله في مواجهة الصعاب التي يواجهها في جهاده لأنّ الكتاب يقول: «فإن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يَخلُص» (متى ١٠: ٢٢). أمّا الطاعة فهي قبول النصائح والطَلَبات التي يسمعها الإنسان فيكون العمل إذّاك مؤازراً بالنعمة الإلهيّة وبذا لا يتوانى الإنسان في أمر خلاصه أينما يكون كما يقول القديس. أمّا إذا اتّفق أن أُمِر إنسانٌ بما هو صعب لدرجة تفوق الطاعة، ينصح القديس أفرام ألاّ تكون مقاومةٌ بغضبٍ بل بتواضعٍ ومحبّة. كما تُفرض الطاعة أيضاً كسبيل للتواضع. ومَنْ كان نشيطاً في عمله وصانع أمورٍ عظيمة، يجب أن لا يتشامخ، ولا يحتقر الإخوة الذين قد يكونون أضعف منه لأنّه بذلك لا يتمّم فضيلة. حريٌّ بهذا الإنسان أن يكرّم الله ويتّقيه ليمدّه بالقوّة حتى النهاية. فالمتوكّلون على قوّتهم هم جهّال (أمثال ٢٨: ٢٦) والمفتخر فليفتخر بالرب (١ كو ١: ٣١).

أمّا في موضوع التواصل مع الآخرين فينصح أنّه إذا أقمت في مكانٍ شهير الإسم فاحذر أن يتسلّط عليك تكبّر العقل. فلا ترذل بذهنك الإخوة كأنّهم في جماعةٍ حقيرة لأنّ الرب وحده يعرف خفايا القلوب، ذلك لئلاّ تكون أنت متباهياً بالورق وأولئك حاصلون على الثمر. تواضع قدر ما استطعت لتحصل على النعمة. والأولى بالمؤمن ألاّ يأمر بل أن يصير مثالاً للآخرين في الأعمال الصالحة.

الموضوع الأخير الذي سنتطرّق إليه هو مواجهة المرض وتطويعه للتقدّم في التواضع. يطلب القديس أفرام من المؤمنين أن يتّكلوا على الله بطول أناةٍ منتظرين رحمته لنكون بذلك مرضيّين عند الله في كلّ النوائب، فإنّه هو المعتني بنا (١ بط ٥: ٧). هكذا يسلك المؤمن على مثال أيوب الصدّيق بصبر. فقد كان الصدّيق يبارك الله على الرغم من المصائب قائلاً: «ليكن اسم الرب مباركاً» (أي ١: ٢١).

أخيراً، يوصينا القديس أفرام بألاّ تكون أعمالنا فقط للظهور أمام الناس والبروز، لكن بما أنّ الله عالم المكتومات والخفيّات فليُعمل كلّ شيءٍ بقلبٍ نقيّ فمنه وحده نوال المكافآت. يبقى على المؤمن حين يسمع تعاليم الآباء القدّيسين ألاّ يبرّر نفسه بما يسمع باحثاً عمّا تظهر هذه التعاليم من حسناتٍ عنده. على المؤمن في سعيه الروحي أن يبكّت نفسه عند سماع الكلمات الروحيّة لا أن يحرّف الكلمات ليبرّر ذاته. فلتكن كلّ كلمةٍ أو تعليم نسمعه، باباً لفحص هفواتنا وزلاّتنا فنتشدّد في الإيمان، إذ يبقى السعي الدائم إلى تبرير الذات تكبّراً بينما تبكيت الذات والبحث عن الأخطاء الشخصيّة هما من سمات التواضع التي تساهم في البنيان الروحي.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb